الأسرة والبيت

وحى صورة

رفعت بصرى خاشعا أتأمل هذه الطلعات الوضيئة النبيلة، فتراءى لى أنه لو تمثلت رحمة الأبوة وحناءتها والدا ، لكان هذا الوالد مليكا الذى ترى محياه الجليل مشرقا بسمات الحنو والرفق وأمارات الرضا والنعيم ؛ ولو استوى حنان الأمومة وسعادتها والدة ، لكانت هذه الوالدة مليكتنا التى تشهد طلعتها النبيلة تضيء بدلائل البر والشفقة وعلائم اليمن والتوفيق ، ولو صورت براءة الطفولة وجمالها ملاكا ، لكان هذا الملاك أميرتنا التى تحفها تباشير السعادة وترعاها عين الله الحافظ الحفيظ .

ولعمرى كيف لا تبدو لى أسمى الحكم وأعظم المعانى ، وكيف لاتتبين لى أخلص السعادات وأجل النعم ، عند ما أرفع البصر إلى هذه الصورة المشرقة بأنبل الطلعات ؟

ألا تلوح إلى هذه الصورة الرائعة ، بأن ما يرف عليها من روح السعادة الخالصة يمكن أن يتحقق كلما اجتمعت ثلاثة وجوه ارتسم عليها قبس من هذا الضوء الذى تشرق به وجوه أعظم أب وأجل أم وأهنأ طفلة ؟؟ . بلى ، وإنها لتوحى بأن فيض السعادة يمكن أن يغمر كل قلب مهما قست عليه ظروف الحياة ، وأن ضوء التوفيق يمكن أن ينفذ إلى أى بيت ولو كان كوخا نائيا منزويا ، إذا ما اجتمع الزوج المخلص إلى جانب الزوجة الوفية ، وبينهما تحبو فلذة من كبديهما معا . . . !

فلو وجد كل امرئ من تشاركه رحلة الحياة الطويلة ، فتلقى إليه كلمة التشجيع إذا قطع أشواطها، وتحنو عليه بكلمة العزاء كلما صادفته عقباتها ، لخفت عن عاتقه أعباؤها الثقال ، وذللت أمام عينيه غاياتها القاصية ، وسار فى طريقه قدما يحدوه الأمل الباسم والصبر الجميل .

لاينضب ومبعث ضوء لا يخبو ، فهو مناط الأمل الباسم مهما أيأست أبويه ؛
وسطوة الأيام،وهو مثابة المرح البهيج إذاما انقبضت أسارير أبويه فى سن الكهو
وهو مصدر النشاط الدافق بعد أن يقعد بأبويه مر الأيام وكر الليالى ، فكأنه ينذ
جديدة ويكتب لهما عمرا ثانيا ، ليستأنفا ما ذوى من الأمانى وما ذبل من المباهج

ففيمَ يجهد الباحث ذهنه طويلا ليبين ماتحفل به الحياة الزوجية من وجوه السعادة
الزيف والخداع ،علامَ يكد المصلح قلمه ولسانه ليحث الناس على ما يهيئه لهم الزو
راضية تيسر لهم سبل التوفيق وتعدّ لهم أسباب النجاح ... فيمَ هذا وعلامَ ذاك ،وما يـ
الطلعات السامية من أضواء الرضا والنعمى ، وما تنطق به هـذه الصورة الباهرة
الرشد والتوفيق ، كفيل بأن يثبت فؤاد كل من يساوره الريب فى نعيم الزواج ،
ستختلج دائما فى حنايا ذاكرته ، وتستقر أبدا فى خفايا سريرته ، وهى أن صدره
الا يوم يجو من حياة العزلة القلقة الصاخبة ، ليأوى إلى الحياة العائلية المستقرة

وهذا الضوء النقى الباهر الذى ينبلج من جبين الفاروق الوضاء، ألا ينفذ شعا
قلب فينير ما أظلم من أنحائه ويبرئ ما اعتل من أطرافه ؟ فهو ضوء الورع الذى
مليك اتجه إلى الله خالص الوجه سليم القلب وما زال فى ميعة الصبا وفتوة الشباب ؛
إلى أداء فريضة الزواج فى سنه المبكرة ، تثبيتا لدعائم التقوى فى نفسه الطاهرة ، وتـ
الله إلى الهدى والرشاد .

فهذا الورع الصادق الذى تشرق فى الصورة أماراته ، يحدثنا بأن الزواج عصمه
نزغة النفس ونزوة الهوى ، فإذا بادر إليه أول ما تسعى عاطفته المشبوبة إلى الفكا
إسارها ، كمل نصف دينه فهان عليـه إكمال نصفه الثانى . فليتأمل الشباب إذن
الذى يخشى الله سرا وجهرا ، ويرعى دينه فى الغيب والشهادة ، ليروا أن النور الـ
سماته الجليلة سوف يشرق منه قبس على وجوههم إذا هم ساروا على مثاله العالى :
إلى الزواج المبكر الذى يهيء لهم وجهة صالحة يقصدونها ...

والزواج الباكر يتيح للزوجين الشابين فسحة من الوقت يوثقان فيها ما بينهما من صلات المودة ووشائج المحبة ، إذ ما تزال طباعهما لينة رخوة يمكن تحويرهما وتشكيلها حتى تتوافق وتتمازج ، وبذلك يهيئان لنفسيهما أساس السعادة الزوجية ، التي تتحقق على أكمل صورة كلما تقاربت طباع الزوجين وتشابهت خصالهما ، ولا سبيل إلى هذا إذا اجتمعا بعد أن تتقدم بهما السن فيتعذر تأليف النفوس النافرة وترويض السجايا الناشذة .

هيأ الله لملكي مصر أسباب المجد والعزة جميعا ، ثم مكن لهما في قلوب رعيتهما الوفية مكانا منيعا ، وباتا تحفهما أنيّ سارا في رعاية الله أسباب النعمى السابغة وتحدوهما عواطف الولاء الصادقة ، وباسمهما يهتف الطفل الدارج ، كما يدعو لهما الشيخ الفاني ، وبصورتهما يزين الكوخ المغزوى كما يزهو بها القصر الباذخ ، وقد صار اسماهما أنشودة الشعب يغردها في مصر قاصيها ودانيها ؛ ولكني أرفع بصري الخاشع إلى وجهيهما الكريمين وهما ينظران إلى ابنتهما نظرة الأبوة الرحيمة والأمومة الحانية ، فأراهما يتهللان بأمارات فياضة بالبشر والغبطة أكثر مما يتهللان بها وهما يشهدان أسباب المجد الوافرة أو يسمعان جموع الشعب الهاتفة الداعية .

لم هذا ؟ لأن الأب والأم يريان في طفلهما ما تتضاءل دونه الدنيا بكل ما فيها من مباهج ومفاخر... فلو لم ينلهما مما يحفل به هذا العالم الفسيح من زخرف ومتاع سوى طفل تحرسه عناية الله ، لكان حسبهما هذا الطفل نبع رضى لا ينضب ، وكنز غنى لا يفنى ، وعالما من السعادة لا تحد أطرافه ولا تدرك نواحيه ؛ ومع هذا يحرم بعض الشباب أنفسهم هذه المتعة الوافرة وهذه النعمة الكبرى ، ارضاء لأهواء طائشة أو تلبية لأطماع جامحة ، تهيم بهم في شعاب متعوجة ملتوية ، لتنتهي بهم إلى مصائر فاجعة مروعة . ولو تأملوا مليا لرأوا أن ما يلتمسونه من اللذائذ الزائفة وما يمنون به النفس من الأماني المموهة ، لا يعدل شيئا من متعة الأب الحاني حين يقبل طفله الباسم .

ولو تدبروا قليلا لعلموا أن الزوجة والابن سوف ينشئان في بيته جنة من الجنان ، فيها من الحب والود والحنو والولاء ما لا يختلج به قلبه لحظة واحدة مهما أمضى الليالي وسط بنات اللهو العابثات ، ومهما تجرع من كؤوس مترعة ببنات الكرم القاتلات .

نهض الفاروق ، أيده الله ، بتبعات الملك وهو فى إبان الفتوة والشباب ، كبرى لا يقوم بهـا إلا عقل نافذ الذكاء ملهم التفكير ، ولا يقوى عليها إلا الجوهر وافر القوى ، ولا يصبر عليها إلا من نذر نفسه لأمته الوفية ووطنه الـ شك فى أن الفاروق يبذل من الجهد أكثر مما يبذله أى فرد فى رعيته ، ويصرف فى العمل المنتج أكثر مما يصرف أى رجل فى أمته ، ولكنه حين يتطلع إلى بين ذراعى أمها العظيمة ، تخف عنه أعباء الملك الثقال ، وتتيسر له تبعات الـ فينضح وجهه الجليـل بآيات البشر واليمن والسعادة ، ويتهلل محيـاه الرفيع ؛ والبهجة والصفاء ، فيمضى فى طريقـه السوى وقد ملأ التوفيق جنبات نفسـ وشرح التفاؤل أنحاء صدره العظيم .

فهل من عجب بعـد أن أوحت هذه الصورة الرائعة ما أوحت ، أن ؛ التاريخ جميعا تحدثنا بأن كل رجل عظيم قد قامت إلى جانبه زوجة عظيمة ، تـ المجد والرفعة فيسعى فيه بتشيط الحركة فسيح الخطوات وتخفف عنه أعباء الجـ فى سبيل آماله فيحتملها راضيا حتى يصيب ما يريد من الأهداف ؟

نعم ؛ فإن الزوجة البارة هى التى ترفع الرجل إلى العمل العظيم ، فتبث فـ والتفاؤل ما يمهد له الطريق إلى المجد والقوة والجاه ، وتخلق فيه من الحزم والعـ له تذليل الصعاب القائمة فى طريقه حتى يجتازها إلى ما يريد ، فاذا ساورت الشاب آراء طائشة توهمهم بأن مطالب الزوجية تقعد بهم عن السعى إلى ا حياة العائلة تبث فيهم روح الخور والجبن والإحجام ، فاينا ملوا هذه الصورة ثم فليقر التاريخ ليروا أن الزوجة والابن هما السر الأول فى توفيق الزوج والأب إلى العظائ إذ يدفعانه إلى العمل الكبير ، فيؤديه لا قسرا وكرها بل عن رغبة صادقة و إيمـ

هذه بعض المعانى التى أوحت بها إلى نفس هذه الصورة السامية ، و إنى لا اليها من آن إلى آخر مفكرا متأملا ، فتبدو لى معان أخرى أروق وأسمى ولعلى إن أ أعجزتنى الكلمات والعبارات ، فلأدعها فى قرارة نفسى تهز أجمل مشاعرها ، و عواطفها وتصور لى دنيا حافلة بالمحاسن زاخرة بالمباهج .